سياسة العباسيين:

لما سلم الحسن بن علي الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان، قامت الشيعة من أهل المدينة،[١]

وأهل مكة والكوفة والبصرة واليمن وخراسان، فاجتمعوا إلى محمد بن الحنفية فبايعوه على طلب الخلافة، وعرضوا عليه قبض زكاتهم، فولّى على شيعة كل بلد رجلًا منهم، وأمره باستدعاء من قبله في ستر، على ألا يبوحوا بمكنونهم إلا لمن يوثق به حتى يرى للقيام موضعا، فأقام ابن الحنفية إمام الشيعة حتى مات، وولي عبد الله ابنه من بعده، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلا، وعلم به الخليفة سليمان بن عبد الملك، ولما اجتمع إليه أنكر ما عزى إليه من المبايعة له بالخلافة؛ إذ كان «من[٢] الجائز للإمام في حال التقية[٣] أن يقول: إنه ليس بإمام.» فقيل: إن سليمان بن عبد الملك دس على عبد الله من سمه في الطريق، وقيل: إنه مرض فأتى الحميمة من أرض الشام، وبها جماعة آل العباس، فعهد قبل موته إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، أن يطالب بالخلافة بعده، وولاه وأشهد له من الشيعة رجالا، فأقام محمد بن علي هذا إمامًا، ودعوة الشيعة له حتى مات، فلما حضرته الوفاة ولي الأمر إبراهيم بن محمد المدعو بالإمام، فانتبه مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين لما كان منه فقتله، وقيل: إن إبراهيم بن محمد عهد بالخلافة بعده إلى أخيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس عم الرسول.

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة.

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري.

(٣) التقية مشتقة من اتقاه؛ أي خافه، وهي ضد العلانية جائزة باتفاق العلماء إذا خشي المرء على نفسه التلف، وكانت شائعة في جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين؛ ولذلك أجمع رأي الصحابة على عهد عمر بن الخطاب لما أرادوا التاريخ أن يبدءوا من سنة الهجرة؛ لأنه الوقت الذي حكم فيه الرسول على غير تقية، وعمد إلى التقية كثير من فرق الخوارج والشيعة فنجوا من أيدي أعدائهم، واتقى كثير من آل البيت فتابعوا من لم يشايعوهم على آرائهم، ومن الخوارج كالصفرية والزيادية من يقولون: إن التقية جائزة في القول والعمل، والردي عند الخوارج هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه (مبحث في التقية للمؤلف، مجلة المقتبس م٢.)

اختار محمد بن علي يوم قام يحاول انتزاع الملك من الأمويين بلاد خراسان ميدانًا لإظهار دعوته؛ لأن أهل الشام والجزيرة والحجاز لم يكن هواهم مع آل العباس، وهم يعلنون ولاءهم للأمويين سرًا وجهرًا؛ ولأن في أهل خراسان العدد الكثير[١] والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة، لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النحل، وليس فيهم التحزب للقبيلة والعصبية للعشيرة،[٢] وهم مظلومون يؤملون الدول، ولم يكونوا على العهد الأموي محل الرعاية، بل أقصوهم عن الحكومة، وجلبوا إليهم العمال من الأحزاب العربية، وكان أهل خراسان في أكثر ملك العجم لقاحا، لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجا، فلما جاء الإسلام صالحوا على بلادهم، فلم تسفك بينهم الدماء وخف خراجهم. ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بني العباس (١٢٧ه) وصبغ أول سواد لبسته المسودة، وقلما سمع أهل بلد بجيش خراسان إلا سودوا قبل أن يوافيهم؛ أي لبسوا السواد شعار بني العباس ونزعوا شعار المبيضين، أي الأمويين.

قالوا لما جاء الوقت الذي أعد[٣] فيه أبو مسلم مستجيبيه خرجوا جميعا في يوم واحد من كور خراسان، وانجفل الناس من هراة وبوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والضغانيان والطخارستان وختّلان وكش ونَسف، فتوافوا جميعًا مسودي الثياب، وقد سودوا أيضًا أنصاف الخشب التي كانت معهم، وسموها «كافر كوبات» وأقبلوا فرسانًا وحمارة ورجالة يسوقون حميرهم ويزجرونها «هرّ مروان»، يسمونها مروان ترغيمًا لمروان بن محمد وكانوا زهاء مائة ألف رجل.

لما وجه إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراساني إلى دعاته بخراسان أعطاه لواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب، فعقدهما على رمحين، ومعنى الظل والسحاب أن السحاب يطبق على الأرض فلا تخلو من الظل، كما لا تخلو الأرض من خليفة عباسي آخر الدهر، وجعلت الراية سوداء حزنا على شهدائهم من بني هاشم، ونعيًا على بني أمية في

(١) معجم البلدان لياقوت.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة.

(٣) الأخبار الطوال للدينوري.

قتلهم،[١] وكان الحارث بن سريج لما ثار على بني أمية (سنة ١١٦هـ)، وكذلك بهلول الخارجي (سنة ١١٩هـ)، وأبو حمزة الخارجي (سنة ١٢٨هـ) اتخذوا اللواء الأسود شعارا، وما كان أحد منهم في حداد على أحد من آل البيت.[٢]

وكان إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم باليمانيين، وأن يقتل من يشك فيه من مضر، وإن استطاع ألا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية فليفعل، وأي غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه فليقتله، فأنفذ أبو مسلم ما أمر به، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار في خراسان.

واستمر[٣] ما كان من الشنآن بين النزارية واليمانية، وتحزب الناس بالمثالب، وثارت بينهم في البدو والحضر، فغلب على خراسان، بضعف الأمويين آخر أيامهم عن إنجاد واليهم عليها، وتخطت عسكره إلى العراق، وما وضع مقاليد الخلافة في أيدي بني العباس بالكوفة حتى كان قتل فيما قيل ستمائة ألف إنسان.

كان آل العباس وآل أبي طالب شرعا[٤] في المطالبة بالخلافة؛ ولذلك سموا شيعة آل محمد، ولم يكن إذ ذاك بين بني علي وبني العباس افتراق في رأي ولا مذهب، فلما ملك بنو العباس نفر عنهم فرقة من الشيعة مالت إلى بني علي، واعتقدت أنهم أحق بالأمر، فصار المتشيع هو الذي يعتقد إمامة أئمة الإمامية من بني علي لا الموالي لبني علي والعباس - كما كان من قبل - وكان المنصور أول[٥] ملك أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب، وإذ قدر أن يستأثر بالملك آل العباس دون الطالبيين، أصبح هؤلاء بحكم الطبيعة من المخالفين، ونقم الطالبيون على العباسيين وخرجوا عليهم في كل عصر.

أيقن إبراهيم الإمام بأنه مقتول لا محالة بأيدي الأمويين فنعى نفسه إلى أهل بيته، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه عبد الله، وأوصى إليه بالخلافة، فسار بأهل بيته

---

(١) مقدمة ابن خلدون.

(٢) السيادة العربية لفان فلوتن، تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم.

(٣) خطط الشام للمؤلف.

(٤) أخبار البيوتات العلوية لابن زهرة.

(٥) السلوك للمقريزي.

وفيهم أخوه أبو جعفر، فأقام بالكوفة شهرًا وهو مستخف، ثم ظهر وسلموا عليه بالخلافة، وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي، ولقب بالسفاح؛ لأنه سفح دماء بني أمية، وقال في أول خطبة خطبها «أنا السفاح المبيح والثائر المنيح.»

وفي هذه الخطبة يقول ردا على الشامية - أي بني أمية - في قولهم: إنهم أحق بالرياسة والسياسة والخلافة من غيرهم: إن الله لما قبض الرسول إليه قام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم، «ووحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها، ووضعوها مواضعها، وأعطوها أهلها، وخرجوا خماصا منها، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان، فانتبذوها وتداولوها، فجاروا فيها واستأثروا ... وقام عمه داود بن علي فقال: أيها الناس، إنا والله ما خرجنا في طلب هذا الأمر لنكثر لجينًا ولا عقيانًا، ولا نحفر نهرًا ولا نبني قصرًا، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغصب لبني عمنا، وما كرهنا من أموركم.»

وفرق السفاح الولايات على رجال من آل بيته، وعهد إليهم أن يستأصلوا الأمويين، وكل من يمت إليهم بسبب، ولم تأخذ العباسيين رأفة بأطفال الأمويين ونسائهم وشيوخهم، قتلوا حتى من استأمن منهم، وبحثوا عنهم في كل صوب وحدب، واجتثوا أصولهم وفروعهم، وأخذوا ثاراتهم من أحيائهم بالقتل، ومن أمواتهم بنبش قبورهم، وصلب أشلائهم، وإحراق عظامهم، وتذريتها في الريح، أو بصب اللعنات عليهم، وتسويد صحائفهم، ثم كتب السفاح كتابًا عامًا إلى البلاد يعطي فيه الأمان للأمويين، وما كان أمانه إلا مدرجة لظهورهم، حتى إذا برزوا للناس قتلوا كل قتلة بلا حكم ولا مسوغ.

وأهم ما وقع بموت السفاح قيام عبد الله بن علي عم السفاح يدعو بالشام والجزيرة إلى نفسه، زاعمًا أن السفاح جعله ولي عهده من بعده، فجهز المنصور لحربه أبا مسلم الخراساني فاشتد القتال بينهما في نصيبين، ثم انهزم عبد الله والتحق بأخيه في البصرة، واستولى أبو مسلم على جميع ما كان أخذه عبد الله من نعمة بني أمية في الشام.

ولقد كان المنصور كالسفاح ممن لا تأخذهم هوادة في سبيل الملك، وربما كان في شدته على العلويين أكثر من شدته على الأمويين؛ فقد كان في العلويين بقية من قوة يخشى شرها، أما رجال بني أمية فقد قُتلوا، ولم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية الذي أفلت من مجازر العباسيين، وذهب إلى الأندلس وأقام فيها ملكًا، جمع حوله فيه كل شريد وطريد من آله وأنصارهم، فأرسل المنصور عليه جيشًا بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبي، فنزل باجة داعيا إلى المنصور واجتمع إليه خلق فسار إليه عبد الرحمن ولقيه بنواحي إشبيلية، فقتل القائد العباسي وجيشه كله، وكان سبعة آلاف، وقع هذا بعد سنة ١٣٩هـ فقال المنصور في عبد الرحمن الداخل: ما هذا إلا شيطان، فالحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر، أو كلاما هذا معناه، ولقبه بصقر قريش.

ولما قتل المنصور أبا مسلم الخراساني خرج[1] رجل اسمه سنباذ بخراسان يطلب بثأره، ولما التقى هو وعسكر المنصور، كان سنباذ قد أخذ معه عدة من النساء المسلمات اللواتي قد سباهن، وهن على جمال، فأمر سنباذ بإخراج النساء المسبيات قدام عسكره، فخرج النساء حواسر على الجمال، وصحن صيحة واحدة: وامحمداه، فنفرت الجمال، وكرت راجعة على عسكر سنباذ ففرقتهم، فتبعها عسكر المنصور ودخلوا خلف الجمال، فوضعوا فيهم السيوف وأبادوهم قتلا، وكان عدد القتلى ستين ألفا.

وظهر محمد بن عبد الله العلوي (١٤٥هـ) في المدينة ودعا إلى نفسه فبايعه أهلها بالخلافة، وقال: إنه خرج[2] غضبا لله، واستولى على مكة واليمن فندب المنصور لقتاله ولي العهد عيسى بن موسى، وقال: لا أبالي أيهما قتل الآخر، يعني إن قُتل هذا الخارج فبها ونعمت، وإن قُتل عيسى استراح منه ليولي مكانه ابنه المهدي، فحارب محمد حتى قتل، ثم خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بالبصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية، فبعث إليه أبو

(١) الفخري لابن الطقطقي.

(٢) دول الإسلام للذهبي.

جعفر عيسى بن موسى فحارب إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه.[1] ويقول أرباب التواريخ: إن المنصور لما بلغه خروج إبراهيم بن عبد الله خاف واشتد قلقه، وتحول فنزل بالكوفة ليأمن غائلة الشيعة، وألزم الناس حينئذ بلبس السواد حتى العوام، وجعل يقتل كل من يتهمه أو يسجنه، والشيعة يغلون ويتبايعون سرا لإبراهيم حتى اتسع الخرق، وبقي المنصور لا يقر ولا ينام وحار في نفسه، وحوله بالكوفة مائة ألف سيف كامنة مضمرة للشر. قال الذهبي: لولا السعادة لزال ملكه بدون ذلك، وقيل: إن عسكر إبراهيم بن عبد الله بلغوا مائة ألف، فلو هجم على الكوفة لاستولى على الأمر وظفر بالمنصور: وخشي إن هجمها أن يستباح الصغار والكبار، وكان جنده يختلفون عليه وكل واحد يشير برأي، إلى أن كانت الوقعة بباخمرا على يومين من الكوفة، وقُتل إبراهيم وأفلت ابن أخيه إدريس بن عبد الله فأتى مصر وحمله صاحب البريد إلى المغرب، فانتهى إلى ودي به إماما سنة ١٧٢، ثم خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن أرض طنجة ون بن الحسن بن علي بن أبي طالب بفخ على ستة أميال من مكة، فخرج إليه عيسى بن موسى فقتل الحسين وأكثر من معه.

وخرجت الجيوش الخراسانية عن الطاعة (١٥٠هـ) فاشتد الأمر على المنصور، وجهز جيشًا عظيمًا، وكذلك كان من الأمير الذي عصا عليه فجرت بين الفريقين وقعة يقال إنه قتل فيها سبعون ألفًا، وضرب الجيش العباسي أعناق الأسرى، وكانوا أربعة عشر ألفًا، وغلب الخوارج الأباضية على إفريقية (١٥٣هـ)، وبايعوا أبا قرة أحد رؤسائهم بالخلافة، وجهز المنصور خمسين ألف فارس وأنفق عليهم ثلاثة وستين ألف ألف درهم، وكانت إحدى شيع الخوارج النكرية هي التي قامت بهذه الثورات على الخلافة، ثم استعاد المنصور إفريقية من الخوارج وقتل عامله كبارهم.

وغزا الروم في أيام المنصور ملطية وقالقيلا وهدموا سور ملطية، وعفوا عن المقاتلة والذرية، فأرسل المنصور (سنة ١٤٠هـ) فعمرها في ستة أشهر، ثم سار ملك الروم إليها في سبعين ألفًا، فلما بلغه كثرة المسلمين رجع عنهم. وفي أيام المنصور

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري.

أيضًا احتل الروم طرابلس الشام، وظهر في لبنان رجل من أهل المينطرة[١] (سنة ١٤٢-١٤٣هـ) وسمى نفسه ملكًا، ولبس التاج وأظهر الصليب، واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم، واستفحل أمرهم، فظهر الجيش العباسي عليهم، وكانت علائق المنصور مع ملك فرنسا (ببين القصري) حسنة، أسرع[٢] هذا إلى عقد صلات مع خليفة بغداد، وأرسل في سنة ٧٦٥م رسلا لبثوا ثلاث سنين حتى رجعوا إلى فرنسا، ومعهم رسل الخليفة، ثم عادوا إلى بغداد ومعهم الهدايا إلى الخليفة.

ويقال: إن المنصور[٣] حرض ببين على قتال عبد الرحمن الأموي في الأندلس، وكان خلفاء الشرق يحاسنون ملوك الفرنسيس ويتبادلون وإياهم الهدايا والألطاف، وببين هذا لا يزال يغير بعضهم بالإيقاع ببعض، وملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا في حرب مع مسلمي الشام وفارس ومصر، وظهر المنصور على من بيضوا في الشام؛ أي لبسوا شعار الأمويين، وكان عرب الشام[٤] ندموا على ما أتوا من خذلان بني أمية، حتى تسلط العجم من أبناء خراسان عليهم، فهاجت لذلك واضطربت، وامتنعوا من البيعة لبني العباس، وقاوموهم بجموعهم، وحاربوهم بمن بقي من أحباب الأمويين، ومنهم من ادعى الخلافة، ومنهم من ادعى أنه السفياني نسبة لأحد أبناء أبي سفيان المبشرين بإعادة ملك بني أمية، فالتف الناس حولهم، وكان المقصود من دعوى السفياني تقوية الآمال برجوع دولة بني أمية، ومسألة السفياني عند الأمويين كدعوى المهدي عند العلويين، اختلقوا لها أحاديث وجلبت ويلات على الضعفاء، وقُتل المشايعون لها تقتيلا بأيدي الأقوياء، عن مسلمة بن عبد العزيز قال: سمعت العزرمي يقول: سمعت محمد بن علي يقول: النبي ما زال منا والمهدي من بني عبد شمس، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز، وكان الناس يرون موسى بن طلحة بن عبيد الله في زمانه هو المهدي.

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر.

(٢) تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط لشكيب أرسلان.

(٣) تاريخ العصور الوسطى في الشرق والغرب لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوي.

(٤) خطط الشام للمؤلف.

كان اليمانيون يذهبون إلى أنه سيظهر فيهم القحطاني المنتظر، والمضريون يعتقدون بالتميمي حتى إن عبد الرحمن بن الأشعث ادعى أنه القحطاني،[١] وكان الحارث بن سريح الذي قام على الأمويين يدعي أنه المهدي وأن الله أرسله لإنقاذ الأمة من الظلم وإقامة حكومة يرضى عنها السواد الأعظم، وبالطبع تكون من آل البيت.

والمنصور[٢] أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله، وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها، واستعمل كثيرين من أهل بيته في القيادات الكبرى، واختار من استخلصه من غيرهم للأعمال الصغيرة، واستوزر أبا أيوب المورياني الخوزي وهو فارسي، كما استعمل ابن عطية الباهلي وهو من صميم العرب، فهو الخليفة الذي بدأ بخلط العناصر الإسلامية، وما تشدد في أصول من يستعملهم في شئون الدولة.

وخلع المنصور من ولاية عهده عيسى بن موسى (سنة ١٤٧هـ) وعهد لابنه المهدي، وجعل لعيسى بن موسى ولاية العهد بعد المهدي، ووجه المهدي في خلافته رسلا إلى ملوك الشرق يدعوهم إلى الطاعة، فدخل أكثرهم في طاعته، فكان منهم ملوك كابل وطبرستان والسغد وطخارستان وباميان وفرغانة وأشروسنة والخرلخية وسجستان والترك والتبت والسند والصين والهند والتغرغز، وغزت جيوشه الروم والهند، وخرج عليه في خراسان يوسف بن إبراهيم فقضى عليه.

وحمل المهدي عيسى بن موسى على خلع نفسه من ولاية العهد، وبايع لابن المهدي موسى بن محمد الذي لقب بالهادي، وكان المهدي في آخر أيامه يود لو تنحى ابنه الهادي من ولاية العهد، ويقدم عليه ابنه الآخر هرون، لما رأى من كفاءة هذا.

وفي أيام المهدي خرج نائبه دحية بن مصعب بن الإصبغ بن عبد العزيز بن مروان بصعيد مصر، ومنع الأموال ودعا إلى نفسه بالخلافة، وملك عامة الصعيد، وقاتل العباسيين مدة فأعجزهم.

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودي.

(٢) السلوك للمقريزي.

كانت الخيزران أم الهادي تتدخل في أمور السلطان لقضاء حوائج الناس، فمنعها ابنها من ذلك، وكانت تفتات عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله، في الاستبداد بالأمر والنهي فأرسل إليها، ألا تخرج من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليها بصلاتها وتسبيحها وقبلتها، ولها بعد هذا طاعة مثلها فيما يجب لها، وحرضها ألا تفتح فاها في حاجة لملّي ولا ذمي، وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه.

بويع للرشيد عند موت أخيه الهادي، وكان أبوهما عقد لهما بولاية العهد معا، وكانت حدثت الهادي[1] نفسه بخلع الرشيد، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعهده فأجابوه، وأحضر هرثمة بن أعين فقالوا له: تبايع يا هرثمة؟ فقال: يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك، ويساري مشغولة ببيعة أخيك، فبأي يد أبايع، والله يا أمير المؤمنين ما أكدت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته، ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى، ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة، وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت، لأمسكت عن هذا، فقال لجماعة من حضر: شاهت وجوهكم، والله لقد صدقني مولاي وكذبتموني، ونصحني فغششتموني، وسلم إلى الرشيد ما قدره الهادي فيه.

ومن الغريب أن سلّم على الرشيد بالخلافة، وهو في الثانية والعشرين من عمره، كل من عمه سليمان بن المنصور، وعم أبيه المهدي وهو العباس بن محمد، وعم جده المنصور وهو عبد الصمد بن علي، وبويع له بإجماع الأمة ما عدا جزيرة الأندلس،[2] وكانت سياسة الرشيد رشيدة في شئونه الداخلية والخارجية، غزا الروم حتى وصل إلى اسكدار من ضواحي القسطنطينية أيام ولايته العهد، وتغلغل مرة ثانية في بلادهم وغزاهم في خلافته بضع غزوات، وأخذ منهم هرقلية، وبعث ملكهم إليه بالجزية عن رعيته وعن رأسه ورأس ولده وبطارقته، واشترط عليه الرشيد ألا يعمر هرقلية، وأن

---

(١) المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب.

(٢) المؤنس في أخبار إفريقية، وتونس لابن أبي دينار.

يكون الحمل في السنة ثلاث مائة ألف دينار، وكان نقفور صاحب الروم نقض العهد الذي كان أعطاه، قال معاوية بن عمرو:[١] وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هرون في الغزو، ونفاذ بصيرته في الجهاد، أمرًا عظيمًا، وأقام من الصناعة (الأسطول) ما لم يقم قبله، وقسم الأموال في الثغور والسواحل، وأشجى الروم وقمعهم، وسُمي الرشيد جبار[٢] بني العباس؛ لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفا، وأخذ خمسة آلاف دابة بسروج الفضة ولجمها، وأغزى علي بن عيسى بن ماهان بلاد الترك فقتل منهم أربعين ألفًا، وسبى عشرة آلاف، وأسر ملكين منهم، ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية وأخذ الجزية من ملك الروم.

يقول أرباب التواريخ [٣] من الإفرنج: إن الرشيد كان بينه وبين شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا في عصره صلات سياسية، وإنهما تبادلا السفراء، وإن الرشيد أرسل هدايا إلى شارلمان، وبعث إليه بمفاتيح القبر المقدس، وإن نصارى الشام نفس من خناقهم عقبى هذه العلائق بين ملكي الإسلام والنصرانية.

ولا أثر لهذه الرواية في تواريخ العرب. ويقول[٤] رينو: إن هرون الرشيد بعث وفدًا إلى شارلمان، وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهوديًا اسمه إسحق، مصحوبا باثنين من الفرنسيس للسلام على الخليفة، فعاد الوفد من الشرق إلى الغرب يحمل إلى شارلمان هذا شيئا من المنسوجات وفيلا وطيوبا ومعطرات، ومن جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر عظيم الحجم، وساعة من نحاس أصفر أيضًا تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار، وأبلغ الوفد شارلمان ما قال له الرشيد من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك.

وفي أيام الرشيد خرج الوليد بن طريف الحروري من رءوس الخوارج (سنة ١٧٩ه) فقتل بعد أن استفحل شأنه، وخرج في الديلم يحيى بن عبد الله العلوي وبايعه الشيعة

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري.

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبي.

(٣) معجم لاروس الجديد، ومعلمة الإسلام، مادة هرون الرشيد.

(٤) تاريخ غزوات العرب لشكيب أرسلان.

وكثرت جموعه، فبعث إليه الرشيد جيشًا فقتله وأنصاره، وخرج بتاهرت السفلى محمد بن جعفر فغلب عليها وصارت في أيدي مناصريه، وخرج الخزر (سنة ١٨٣هـ) من باب الأبواب فقتلوا وسبوا، وقيل: إنهم سبوا مائة ألف، فطردتهم عساكر الخليفة، ثم سدوا الباب الذي خرجوا منه، وأمر الرشيد بإخراج الطالبيين من دار السلام إلى المدينة.

ومن رأي سترستين[1] أن انحطاط دولة بني العباس بدأ بالرشيد، ونحن نرى أن عهد الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بني العباس قوة وعظمة وثقافة، وهو العصر الذهبي، بما لا يقبل الجدال ودور الانحطاط، إنما بدأ بعد عصر المعتصم باستيلاء الأعاجم على مقاليد الدولة، فخرجت عن عظمتها، وعلق الضعف يدب فيها، والفساد يعبث بكيانها، ولعل سترستين يعد من انحطاط هذه الدولة أن يعهد الرشيد لابن الأغلب عامله على إفريقية (تونس) بأن يؤدي عنها كل سنة أربعين ألف دينار، وينزل عن المعونة التي كان سلفه يأخذها من مال مصر، وقدرها مائة ألف دينار، وجعل الإمارة لعقبه من بني الأغلب يتوارثونها، والواقع أنه قلما عُهد من الخلفاء توسيد العمالات للبنين بعد الآباء، وأن إفريقية بهذا الصنيع أصبحت مستقلة في داخليتها، مرتبطة بالخلافة العباسية في أمورها المهمة فقط، فصغرت رقعة الدولة العباسية بالإمارة الأغلبية في إفريقية، ومن ورائها الدولة الرسمية في تاهرت، ودولة إدريس في طنجة، ودولة بني أمية في الأندلس، فانسلخت ممالك من جسم دولة بني العباس في الظاهر، واكتفوا بتوسعهم في أملاكهم في الشرق، وحصروا وكدهم في البلاد الباقية، وفيها ما يستغرق جميع قوى الدولة.

وربما كان مما دعا الرشيد إلى إعطاء هذا الاستقلال كون جمهرة جيوش العباسيين من خراسان وما وراء النهر وغيرها من أرض الترك، والأعاجم كغيرهم تهوي أفئدتهم أبدًا إلى بلادهم، وهم أعرف بمداخل بلادهم ومخارجها، وطباعهم أقرب إلى التلاؤم مع هواء المشرق، ولئن كانت جيوش الرشيد مستعدة على الدوام للوثبة على الأعداء، لكن أي الحملات يضمن لها النجاح كل حني، إذا قضى عليها أن تسير عند الاقتضاء

(١) معلمة الإسلام، هرون الرشيد.

من ضفاف الفرات ودجلة إلى المغرب الأقصى، أو من مصر إلى الغرب الأقصى، مع هذه المساوف الطويلة في البر، وهي لا تقل عن بضعة أشهر بسير الجيش.

إذا نظرنا إلى توسيد إمارة إفريقية إلى ابن الأغلب من وجهها الحسن، نقول: إن الرشيد أراد أن يجعل من إفريقية سدًا بينه وبين أعدائه من الأمويين، ويترك لبني الأغلب أن يعالجوا شئون الغرب الأقصى والأدنى، وما يقوم فيه النُّزاع إلى الثورة والخارجون على السلطان، ليتفرغ لشئون مملكته التي أربت بسعتها على مملكة الرومان في أوج عظمتها.

أما إذا نظرنا إلى ما جرى من وجهه القبيح، فنقول: إن العباسيين بدءوا على عهد الرشيد ينزلون عن أجزاء مهمة من ممالكهم؛ لعجزهم عن سياستها والماء إرادتهم عليها، والانتفاع بها من كل ناحية، بيد أن الرشيد لم يعهد لابن الأغلب بولاية إفريقية إلا لما استشار أولياءه،[1] وفي مقدمتهم أعظم قواده هرثمة بن أعين، وكان ولي إفريقية وخبر أحوالها، وتولى الأغالبة قتال الأباضية وبني إدريس بن عبد الله الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب، وفتحوا صقلية ومالطة وجزائر البحر، ووسعوا بما فتحوا ملك الإسلام تحت علم الخلافة العباسية، وعمرت إفريقية وغيرها من الأقطار والجزائر التي فتحوها عمرانا لا نظير له من كل وجه.

وعهد الرشيد في سنة ١٧٥هـ إلى ولده محمد الأمين، ومحمد بن خمس سنين، قال اليعقوبي أخرجه إلى القواد فوقف على وسادة، فحمد الله وصلى على نبيه، فقام عبد الصمد بن علي فقال: أيها الناس، لا يغرنكم صغر السن، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء، ولقد اضطر الرشيد إلى هذه البيعة لتطاول أعناق كثير من بني العباس للخلافة، ولكن ما عزي من الكلام إلى عبد الصمد بن علي فيه نظر؛ لأنه أشبه بالهزل[2] منه بالجد، على أن الرشيد أخذ البيعة للمأمون بعد الأمين في سنة

---

(١) الخلاصة النقية في أمراء إفريقية للباجي.

(٢) كان اليعقوبي والمسعودي وابن الطقطقي وحمزة الأصفهاني على مكانتهم في العلم، من المؤرخين الذين تجلى فيما دونوا مبلغ هواهم مع الطالبيين، فهم منحرفون عن بني أمية وبني العباس يسجلون لهم العيوب والهنات التي تسقطهم في أنظار أرباب المدارك، خلافا للطبري والدينوري وابن

١٨٣، وأودع العهد الذي كتبه بينهما في الكعبة، وقال فيه: إن الغادر منهما خارج عن الأمر، أيهما غدر بصاحبه فالخلافة للمغدور به،[١] وكان الأمين البادئ بهذا الغدر بنزعه ولاية العهد من أخيه المأمون وتفويضها إلى ابنه الطفل، وكان الرشيد جعل للمأمون خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان والري وما إليها خمس سنين على أن يكون له جميع ما في جيشه وفي البلاد من العتاد والعدة، فكانت هذه المهمات من العوامل النافعة في تغلبه على أخيه، ولم تصف له الخلافة حتى أهرقت دماء كثيرة .

ولما جرى بين الأمين والمأمون ما جرى، وقتل الأمين، وأعطى أهل خراسان الطاعة للمأمون، وبايعوه بالخلافة خطبهم فقال: أيها الناس، إني جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم، ولا أسفك دمًا عمدًا لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثًا ولا نحلة تحرم علي، ولا أحكم بهواي في غضبي ولا رضاي، جعلت ذلك كله لله عهدًا مؤكدا، وميثاقًا مشددًا، فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا، وللنكال متعرضًا، وكان منه أن وفى بشروطه.

وحاول المأمون أن يريح الأمة من متاعب الخلافة، بعد أن رأى عبث أخيه الأمين وعبث المهدي والهادي، فارتأى أن يوسد ولاية العهد لأحد أبناء علي، فرأى وهو في خراسان قبل أن يعود إلى دار ملكه، أن يعهد إلى علي بن موسى الرضا، رجل زمانه من آل البيت علمًا وصلاحًا، وزوجه ابنته أم حبيب، وزوج محمد بن علي بن موسى ابنته أم الفضل،[٢] وضرب اسم ولي عهده على الدينار والدرهم، وأزال السواد شعار بني العباس من اللباس والأعلام، فأكبر آل العباس هذا، ورأوا فيه مسًا بحقوق بيتهم، وكانوا ثلاثة وثلاثين ألفًا، فبايعوا بالخلافة في بغداد لعم المأمون إبراهيم بن المهدي، ولما

=

قتيبة وابن الأثير وابن عساكر وابن كثير والذهبي وابن خلدون وابن الخطيب والمقريزي وأضرابهم ممن دونوا الوقائع على علاتها، وغلبت عليهم الأمانة والصدق؛ إذ لم تكن لهم دعوة خاصة يدعون إليها، فوجب من أجل هذا أن تؤخذ روايات مؤرخي الشيعة باحتياط تام.

(١) مروج الذهب للمسعودي.

(٢) تاريخ الطبري.

رأى هذا قوة ابن أخيه اختفى مدة، فعفا المأمون عنه، وكان المأمون شاور فيه أصحابه فكل أشار بقتله فقال لهم: «إن قتلته كنت متبعا للملوك قبلي فيما فعلته بمن ناوأها ونازعها، وإن عفوت كنت أمة وحدي.» وكذلك كان أمة وحده.

قالوا: وكان المأمون يقصد من جعل حصة للعلويين في الخلافة، والاستعاضة عن سواد بني العباس بخضرة آل علي، أن يحمل هؤلاء على الظهور؛ لأن القوم كادوا يعدونهم من غير الطينة البشرية، وارتأى أنهم متى ظهروا من استتارهم للناس رأوهم مثل غيرهم، وفيهم الفاجر والطاهر، فتنتهي المطالبة أو تخف وتحقن الدماء، وأخرى أن المأمون كان يرى في الخلافة رأي المعتزلة، وهو أن توسد إلى الأصلح لها في المسلمين ولو كان من غير قريش، وبذلك ترجع الأمة مجموعة الشمل، لا فرقة في صفوفها، ولا خلل في بنيانها، وتكون الخلافة للصالح لها، يعيدها سيرتها الأولى على عهد أبي بكر وعمر، بعهد من الخليفة للأصلح، أو شورى يختاره لها جماعة من الأخيار، وأما قول من قال: إن المأمون عهد لعلي بن موسى الرضا؛ لأنه كان يتشيع، فإن تشيع المأمون هذا كان مقبولا معتدلا، وهو أقرب إلى الاعتزال، والمأمون يريد أن ينصب خليفة للمسلمين كافة، لا للسنة ولا للشيعة ولا للمعتزلة ولا للخوارج.

كانت الخلافة أوائل العهد الأموي قد انقلبت ملكًا عضوضًا، يقوم على الغلب والعصبية، ويورث ويُتنازل عنه، فإن جاء في الخلفاء من انطوى على حزم وكياسة، استقرت أمور الدولة، وسارت شئونها على الصراط السوي، وإلا أصبحت في بحر مائج من الفضائح والفظائع، وندر في البيوت تسلسل الفضائل والذكاء في بطون كثيرة مددًا متطاولة، مهما عني الأسلاف بتأديب الأخلاف، ولا بدّ من حدوث عوارض كالمرض أو الشيخوخة، تطرأ على البيوت كما تطرأ على الأوطان والإنسان، وهذا في الجملة ما دعا إلى تقلقل الدول الإسلامية بتقلقل القائمين بالأمر فيها؛ لأن الأيدي التي تعاورتها كانت تتفاوت قوة وضعفا.

أراد المأمون أن يغير نهج العباسيين في الخلافة، وقد رأى آله أخذوا بنظرية الحق الإلهي[1] في الحكم وصبغوها بصبغة إسلامية، فجعلوا الخلافة ميراثًا عن النبي

---

(١) هارون الرشيد لعبد الحميد العبادي (ملحق جريدة السياسة).

يتوارثونها، وساروا على قواعد الفرس في نظام البلاط، وفي هذا النظام من فتح المجال للدسائس ما فيه؛ فقد ذهب المهدي والهادي ضحية مكايد دبرت لهما في البلاط، وما أغنى عنهما الاستبداد، وكان من يحكم في ظل هذا النظام، إذا كان قويا يستبد ويطغى، وإن كان ضعيفًا فهناك الفتن والاضطرابات والدسائس؛ فقد كان المنصور والمهدي والرشيد والمتوكل جبابرة مستبدين في أحكامهم؛ لأنهم على قوة في ذاتهم، أما الضعاف من خلفائهم فكانوا ألاعيب في أيدي أهل البلاط ونساء القصر، يصرفونهم على الهوى، ويرأمون للمذلة، فيكون اسم الخلافة لهم، والفعل للنافذين من أهل سلطانهم. ا.هـ.

وآية كل ذلك أن الخليفة إذا استجمع ما تقتضيه الخلافة من علم وعدل وكفاية، أراح الأمة والدولة في حياته وبعد مماته، وإذا كان على عكس ذلك، ومثله من كثر ظهورهم في القرن الثالث من الخلفاء، فهناك البلاء والشقاء.

وفي أيام المأمون خرج في مكة محمد بن جعفر الصادق وكان يلقب بديباجة لحسن وجهه، وبويع له بالخلافة وسموه أمير المؤمنين، فأرسل المأمون إليه جيشًا فكانت الغلبة له، وظفر به المأمون وعفا عنه، ثم أخرجه معه من بغداد فمات بجرجان.

وفي سنة مائتين ظهر في اليمن إبراهيم بن موسى الكاظم ولم يتم أمره، وكان يعرف بالجزار لسفكه الدم،[1] وكان داعية لمحمد بن إسماعيل صاحب أبي السرايا فوجه إليه المأمون جيشًا فهزمه وصار إلى العراق فأمنه المأمون، وخرج بالكوفة في أيام المأمون محمد بن إبراهيم من آل البيت ودعا إليه أبو السرايا، والمأمون بخراسان، وأنفذ زيد بن موسى داعية له، ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه، فخرج بعده مع أبي السرايا محمد بن محمد بن زيد العلوي، فأخذ بطريق خراسان فقتله أبو السرايا، وأظهر بعد ذلك موت محمد، ويقال: إنه حمل إلى المأمون وهو بمرو فمات هناك،[2] وفي أيامه خرج زيد بن موسى بالبصرة على المأمون وفتك بأهل البصرة فأرسل إليه المأمون

---

(١) اليمن وسكانها للمؤلف (مجلس المقتبس م٧.)

(٢) رأينا اختلافا في اسم هذا العلوي فمنهم من يقول: إنه أبو جعفر إبراهيم بن موسى، والطبري يقول: عبد الرحمن بن أحمد إلخ.

أخاه علي بن موسى الرضا فجاءه، وقال له: ويلك يا زيد؛ فعلت بالمسلمين بالبصرة ما فعلت، وتزعم أنك ابن فاطمة بنت رسول الله، والله لأشد الناس عليك رسول الله، يا زيد ينبغي لمن أخذ برسول الله أن يعطي به. فبلغ كلامه المأمون فبكى وقال: هكذا ينبغي أن يكون أهل بيت رسول الله.

وفي سنة سبع ومائتين خرج عبد الله[١] بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب ببلاد عك من اليمن، يدعو إلى الرضى من آل محمد، فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله في عسكر كثيف، وكتب معه بأمانه فقبل ذلك، ووضع يده في يد دينار، فخرج به إلى المأمون، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه، وأمر بأخذهم بلبس السواد، وعلى ما رأى المأمون من تهجم الطالبيين على خلافته، أوصى أخاه المعتصم أن يحسن صحبة بين عمه من ولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ويتجاوز عن مسيئهم، ويقبل من محسنهم، وألا يغفل صلاتهم في كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى.[٢]

وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر، ويوجه رسله فيفرضون لمن يرغب في الديوان، وأراد الفريضة لأهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم، ويستميلهم بالرغبة، فإذا وردوا بابه شرفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم. ثم استخلف المعتصم، فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من أهل ما وراء النهر، من السغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم، وحضر ملوكهم بابه، وغلب الإسلام على من هناك، وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك. والترك[٣] أجناس مختلفة، ولكل جنس مملكة منفردة يحارب بعضهم بعضا.

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري.

(٢) تاريخ الطبري.

(٣) تاريخ البلدان للبلاذري، كتاب البلدان لليعقوبي.

ولم يغفل المأمون عن قتال الروم، غزاهم غير مرة وفتح مدنا من بلادهم، وفي أيام أبيه جرى الفداء بين الروم والمسلمين، حتى لم يبق في أرض الروم من أهل الإسلام أحد، وكأن الروم كانوا عارفين بأن مملكتهم لا تنجو من أيدي المسلمين إلا إذا غزوهم، كلما استطاعوا إلى غزوهم سبيلا، وكذلك المسلمون كانوا موقنين بأن غزو الروم فريضة عليهم، وإلا جاء الروم، إذا آنسوا ضعفا، يستولون على ما قدروا عليه من البلاد، فتعادل بهذا التوازن بين الأمتين، ورجحت كفة المسلمين، ولا سيما في عهد الرشيد والمأمون والمعتصم.

وأرسل المأمون وفدا من قبله إلى ملك فرنسا مؤلفًا من رجلين مسلمين وآخر نصراني، حملوا إلى إمبراطورها من قبل الخليفة العباسي فيها منسوجات فاخرة، وأفاويه عطرة، وكانت العلائق بين العباسيين وملوك فرنسا حسنة.

دب الضعف في الخلافة العباسية بعد المعتصم بفتحه للأتراك باب السيطرة على الأمة، واعتماده عليهم في تدبير ملكه وإدارة ولاياته، فكان ناقض الحجر الأول من أساس دولته،[1] ولم يتجل الانحلال في أيامه كثيرا، وبعد زمنه أخذ الأتراك يسيطرون

---

(١) قال إسحاق بن إبراهيم المصعبي: دعاني المعتصم يوما فدخلت عليه فقال: أحببت أن أضرب معك بالصوالجة، فلعبنا بها ساعة، ثم نزل وأخذ بيدي نمشي، إلى أن صار إلى حجرة الحمام فقال: خذ ثيابي فأخذتها، ثم أمرني بنزع ثيابي ففعلت، ودخلت وليس معنا غلام، فقمت إليه فخدمته ودلكته، وتولى المعتصم مني مثل ذلك فاستعفيته، فأبى علي، ثم خرجنا ومشى وأنا معه حتى صار إلى مجلسه فنام، وأمرني فنمت حذاءه بعد الامتناع، ثم قال لي: إن في قلبي أمرا أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك، فقلت: يا أمير المؤمنين فإني أنا عبدك وابن عبدك، قال: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم، قلت: ومن الذين اصطنعهم المأمون، قال: طاهر بن الحسين فقد رأيت وسمعت، وابنه عبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذي يُر مثله، وأنت ما أنت والله الرجل الذي لا يتعاصى السلطان عنك أبدًا، وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد، وأنا اصطنعت «الأفشين» فقد رأيت ما صار إليه أمره، و«أشناس» ففشل و«إيتاخ» فلا شيء و«وصيف» فلا معنى فيه، فقلت: أجيب على أمان من غضبك، قال: نعم، قلت: يا أمير المؤمنين، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت، واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب؛ إذ لا أصول لها، فقال يا أبا إسحاق: لمقاساة ما مر بي طول هذه المدة أيسر علي من هذا الجواب. ا.هـ.

على الخلفاء، بل يقتلونهم ويسملون عيونهم، ويستبدلون بهم غيرهم، ويبعدون عن الخلافة من يصلح لها، فقد بدءوا بقتل المتوكل بن المعتصم، وأنشأوا يقتلون من شاءوا ويبقون على من شاءوا، استضعفوا الخلفاء فكان الخليفة[١] في أيديهم كالأسير.

وفي أيام المعتصم خرج محمد بن القاسم من ولد الحسين بن علي بالطالقان من بلاد خراسان فحاربه عبد الله بن طاهر وهو على خراسان فانهزم محمد، ثم قدر عليه فحمل إلى المعتصم فحبسه معه في قصره، فاختلف الناس في أمره فمن قائل يقول هرب، ومن قائل يقول مات، ومن الزيدية من يزعم أنه حي وأنه[٢]سيخرج.

وفي أيامه خرج علي بن محمد من آل البيت فقتله بنو مرة بن عامر، وظهر بابك الخرمي المجوسي سنة إحدى ومائتين وتبعه خلق كثير، واستفحل أمرهم فاستولوا على جبال طبرستان، ومكث بابك عشرين سنة فقتل في حروبه عشرات الألوف من الخلائق، وانهزم أمامه الجيش العباسي، حتى بعث المعتصم أفشينًا فحاربه (٢٢٣هـ)، وسمي أصحاب بابك المحمرة؛ لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة في أيامه.[٣]

وكان العراك شديدًا في أيام المتوكل بينه وبين القواد الأتراك، حتى عزم أن ينقل عاصمة الخلافة إلى دمشق، ونقل إليها الدواوين بالفعل، وجاءها بنفسه ثم عدل عن رأيه، وكان شديدًا على العلويين، عفى قبر الحسين بن علي، وبقدر ما كان من شدة المتوكل في هذا المعنى، كان الواثق يكرم العلويين ويحسن إليهم، «وما أحسن أحد إلى آل أبي طالب من خلفاء بني العباس ما أحسن إليهم الواثق، ما مات وفيهم فقير.»

ورد أيضًا على بعض بني أمية أموالهم، وكان القادر أيضًا بارًا بالطالبيين وبأهله، وفي أيام المتوكل غزا الروم دمياط وقتلوا وسبوا من المسلمين والأقباط، فأمر المتوكل

=

وحوى هذا الجواب معاني كثيرة، وأهمها أن الخليفة لم يصطنع العرب، بل اصطنع العجم، فقد كان طاهر ابن الحسين وابنه من خزاعة وكذلك المصعبي وأخوه كانا من أصول عربية.

(١) الفخري لابن الطقطقي.

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري.

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي.

بهدم جميع البيع المحدثة في الإسلام[١] في مملكته، وألا يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من عمل السلطان، ومنع[٢] النصارى من العمارة، وأفردهم بلباس خاص، وكتب بذلك إلى الآفاق.

عقد الواثق لبنيه الثلاثة وقسم الدنيا بينهم، وكتب بذلك كتابًا على نحو ما أجرى جده الرشيد مع أولاده، فأعطى ابنه الأكبر المنتصر من عريش مصر إلى إفريقية المغرب كله إلى حيث بلغ سلطانه، وأضاف إليه جند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار بكر وربيعة والموصل والفرات وهيت وعانة والخابور ودجلة والحرمين واليمن واليمامة وحضرموت والبحرين والسند وكرمان وكور الأهواز وماسبذان ومهرجان وشهرزور وقم وقاشان وقزوين والجبال. وأعطى ابنه المعتز خراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله، وأعطى ابنه المؤيد إرمينية وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين، وهذا التقسيم في المملكة لم يقع لأحد، ولم يخرج الملك مع هذا عن القواعد التي وضعها القدامى من الخلفاء.

وخلع المعتز والمؤيد أنفسهما، وأظهر المنتصر خلعهما (٢٤٨هـ)، وفي أيام المستعين خرج بطبرستان الحسن بن زيد من آل علي بن أبي طالب، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة، ثم خلف من بعده محمد بن زيد أخوه، ثم قتل بعد حرب كانت بينه وبين محمد بن هرون، وخرج بقزوين الكوكبي وهو من ولد الأرقط، واسمه الحسن بن أحمد من ولد الحسين بن علي فغلب عليها، ثم هزمه بعض الأتراك، وخرج بالكوفة أيام المستعين يحيى بن عمر فقتل، وخرج في أيامه أيضًا الحسين بن محمد من ولد الحسين بن علي فظفر به وأُخذ وحبس إلى أن أطلقه المعتمد، وخرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين بن الأفطس، وكان داعية لمحمد بن إبراهيم بالمدينة فلما مات هذا دعا إلى نفسه.

---

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب.

(٢) مروج الذهب للمسعودي.

وفي سنة خمسين ومائتين خرج بسواد المدينة إسماعيل بن يوسف من ولد الحسين بن علي فغلب عليها، وتوفي بعد سنتين وخلفه أخوه بعده محمد بن يوسف، وما زال على أمره إلى أن خرج أبو الساج إلى مكة والمدينة فقتل خلقًا كثيرًا من أصحابه، وهرب محمد فمات في هربه[1] وخلع المستعين (٢٥١هـ) نفسه وبايع للمعتز.

وخاف الوزيران الحسن[2] بن الفرات والعباس بن الحسن أن يتولى الخلافة عبد الله بن المعتز وهو من أكفأ الرجال لمنصبه وبايعا لصبي، فأدخلا سوس الفساد في

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري.

(٢) لما سأل العباس بن الحسن من وزراء العباسيين الوزير الحسن بن الفرات فيمن يصلح للخلافة، وقد مات المكتفي بالله والناس يميلون إلى بيعة عبد الله بن المعتز، قال له: وأي شيء تعمل برجل فاضل متأدب، قد تحنّك وتدرّب، وعرف الأعمال ومعاملات السواد، ومواقع الرعية في الأموال، وخبر المكاييل والأوزان وأسعار المأكولات والمستعملات، ومجاري الأمور والمتصرفات، وحاسب وكلاءه على ما تولوه، وضايقهم وناقشهم، وعرف من خياناتهم وإقطاعاتهم أسباب الخيانة والاقتطاع التي يدخل فيها غيرهم، فكيف يتم لنا معه أمر، إن حمل كبيرا على صغير، وقاس جليلا على دقيق. هذا لو كان ما بيننا وبينه عامرا، وكان صدره علينا من الغيظ خاليا، فكيف وأنت تعرف رأيه؟ قال العباس: وأي شيء في نفسه علينا؟ قال: أنسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكاتبك في حوائجه فلا تقضيها، ويسألك في معاملاته فلا تمضيها، وعمالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر، ويتوسل إلى الوصول إليك ليلا فلا تأذن، وكم رقعة جاءتك بنظم ونثر فلم تعبأ بها، ولا أجبته إلى مراده فيها، وكم جاءني منه ما هذه سبيله، فلم أراع فيه وصولا إلى ما يريد إيصاله إلي، وهل كان له شغل مدة مقامه في منزله وخلوته بنفسه، إلا معرفة أحوالنا، والمسألة عن ضياعنا وارتفاعنا، وحسدنا على نعمتنا، هذا وهو يعتقد أن الأمر كان له ولأبيه وجده، وأنه مظلوم مهضوم مضغوط منذ قتل أبوه، فكيف يجوز أن نسلم إليه نفوسنا فنحترس فضلا عن أموالنا؟ فقال العباس: صدقت والله يا أبا الحسن، فمن يقلد وليس ههنا أحد؟ قال: نقلد جعفر بن المعتضد، فإنه صبي لا يدري أين هو، وعامة سروره أن يصرف من المكتب، فكيف أن يجعل خليفة، ويملك الأعمال والأموال، وتدبير النواحي والرجال، ويكون خليفة بالاسم وأنت هو على الحقيقة، وإلى أن يكبر تكون قد انغرست محبتك في صدره، وحصلت محصل المعتضد في نفسه، قال: فكيف يجوز أن يبايع الناس صبيا أو يقيموه إماما؟ فقال له: أما الجواز فمتى اعتقدت أنت أو نحن إمامة البالغين من هؤلاء القوم (يعني بني العباس)، وأما إجابة الناس فمتى فعل السلطان شيئا فعورض فيه، أو أراد أمرا فوقف، وأكثر من ترى من صنائع المعتضد، وإذا أظهرت أنك اعتمدت في ذلك مراعاة حقه، وإقرار الأمر في ولده، وفرقت المال وأطلقت البيعة، وقع الرضا وسقط الخلاف، وطريق ما تريده أن تواقف بعض أكابر القواد وعقلاء الخدم على المضي إلى دار ابن طاهر

الدولة، بايعا للمقتدر وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يلِ أمر الأمة صبي قبله، وضعف دست الخلافة في أيامه، وأصبحت والدة المقتدر تأمر وتنهي، وترسل قهرمانتها تنظر في القصص والمظالم بحضرة القضاة، ورزق المقتدر ولدا صغيرا فولاه على إمرة الديار المصرية وله أربع سنين، فأصبحت الخلافة خلافة نسوان وصبيان، كل هذا بفعل وزيرين خافا زوال نعمتهما، إذا جاء الكفؤ إلى الخلافة يتولاها، فقضيا على نعمة الأمة بتولية الأطفال خلافة المسلمين وإمرة بلادهم، كان ابن الفرات يريد الخليفة ممن لا يعرف أسعار الخبز واللحم حتى يأمن الوزراء على نفوسهم، وما جمعوه من أموال الناس والدولة، يريد خليفة يقضي أوقاته في شهواته وصيوده ونزهاته، مسجونًا في السجن المزوق وهو قصر الخلافة، والوزير يملي إرادته على نحو ما قال الشاعر في أحد هؤلاء الخلفاء:

خليفـــــة فـــــي قفـــــص بـــــين وصـــــيف وبغـــــا
يقـــــول مـــــا قـــــالا لـــــه كمـــــا تقـــــول الببغـــــا

حاولوا إبعاد مثل ابن المعتز عن الخلافة؛ لأنه لا يطلق أيدي الأغمار والأغرار في مطالبتهم الناس، ويعرف الدقيق والجليل من أحوالهم.

ولا عجب بعد هذا أن تكثر الفتوق في الدولة، ويقتل مثل صاحب الزنج الذي استولى على قسم من العراق خمس عشرة سنة، ألف ألف وخمسمائة ألف رجل، وقيل: إنه قتل في يوم واحد بالبصرة ثلاثمائة ألف، وكان له منبر يسب عليه عثمان وعليا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة، وهذا رأي الخوارج الأزارقة.

ويروي الطبري أن صاحب الزنج كان علويًا واسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم، سمي بصاحب الزنج؛ لأنه جمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ بالبصرة، ويقول الأشعري: إن في اسمه خلافًا وإن أنصاره الزنج، وغلب على البصرة سنة سبع وخمسين، وقتله سنة سبعين ومائتين قتله أبو أحمد الموفق بالله ابن المتوكل على الله،

=

وحمله إلى دار الخلافة، وأن تستر الأمر إلى أن يتم التدبير، وإن اعتاص معتاص مد بالعطاء والإحسان، فقال العباس: هذا هو الرأي (تاريخ الوزراء للصابي).

وعلى ذلك تكون دعوى أنه من الخوارج فيها نظر، وخرج بأرض الشام من آل البيت المقتول على الدكة، فظفر به المكتفي بعد حروب ووقائع كانت.

وفي رواية أن الذي ظهر في أعمال دمشق سنة ثلاثمائة هو ابن الرضي محسن بن جعفر بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد، فكانت له مع أحمد بن كيغلغ عامل الشام وقعة قُتل فيها صبرًا، وقام القرامطة فاستولوا أيضًاعلى أقسام من العراق والشام والحجاز وعلى البحرين وهجر أواخر المائة الثالثة، استولوا عليها وقتلوا عشرات الألوف من الناس، وكان لصاحبهم اتصال بالفاطمي صاحب مصر وكان صاحبهم يكتب إلى عماله، «من عبد الله المهدي، المنصور بالله، الناصر لدين الله، القائم بدين الله، الحاكم بحكم الله، الذاب عن حرم الله، المختار من ولد رسول الله، أمير المؤمنين وإمام المسلمين»، ودعوته من الدعوات الباطنية المتسترة بالانتساب إلى آل البيت العلوي.

وقالوا: إن القرامطة من الرافضة يزعمون أن النبي نص على علي بن أبي طالب، وأن عليا نص على إمامة ابنه الحسن، وأن هذا نص على إمامة أخيه الحسين، وزعموا أن محمد بن إسماعيل حي لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به.

وأصبحت الخلافة في هذا الدور ولا شأن فيها لأذكياء الوزراء في الدولة إلا أن يجمعوا الأموال، وأمست الدولة دولة الأتراك والديامة والخصيان والنسوان، وما كان للخليفة إلا إرضاء الأمراء وأرباب الصولة، روى صاحب[1] تاريخ بغداد أن جماعة (٢٩٦هـ) من الكتاب والقواد سعى بعضهم إلى بعض عازمين على خلع المقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز، فناظروه في ذلك، فأجابهم على ألا يسفك دم، ولا تكون حرب، فأخبروه أن الأمر لا يسلم عفوًا، وأن جميع من وراءهم قد رضوا به فبايعوه بالخلافة، وكان أحد رجال الدولة ممن يختلف إلى دار أبي جعفر الطبري المؤرخ، دخل عليه فسأله: ما الخبر وكيف تركت الناس؟ أو نحو هذا من القول، فقال له: قد بويع عبد الله

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب.

بن المعتز، قال: فمن رشح للوزارة؟ قال: محمد بن داود بن الجراح، قال: فمن ذكر للقضاء؟ فقال: الحسن بن المثنى، قال: فأطرق الطبري قليلا، ثم قال: هذا الأمر لا يتم ولا ينتظم، قال: فقلت له وكيف، فقال: كل واحد من هؤلاء الذي سميت متقدم في معناه، عالي الرتبة في أبناء جنسه، والزمان مدبر والدنيا مولية، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال وانتقاص، ولا يكون لمدته طول، فكان الأمر كما قال: ولم يلِ ابن المعتز الخلافة إلا يومًا، وقتل من الغد بقوة أشياع الخليفة قبله.

واستولى بنو بويه على بغداد، وروي[١] أن الوزير ابن مقلة قال: إنني أزلت دولة بني العباس وأسلمتها إلى الديلم؛ لأني كاتبت الديلم وقت إنفاذي إلى إصبهان، وأطمعتهم في سرير الملك ببغداد، فإن اجتينت ثمرة ذلك في حياتي، وإلا فهي تجتنى بعد موتي، فكان كما قال.

وأمر الطائع (سنة ٣٦٩هـ) خلفاءه على الصلاة في جوامع مدينة دار السلام، بأن يقيموا لعضد الدولة بن بويه الدعوة تالية لإقامتها له على منابرها، ونفذت به الكتب إليهم، ورسم أن يضرب على بابه بالدبادب في أوقات الصلوات.

قال ابن مسكويه:[٢] وهذان الأمران من الأمور التي بلغها عضد الدولة، واختص بها دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها، والخلفاء في هذا الدور يلقون إلى المتغلبين عليهم بمقاليد السلطنة إلا ما لا بال له،[٣] ويخلع الخليفة على الملك الخلع السبع والعمامة السوداء ويسوّد بطوق، وكان أبدًا يخطب للملك أو الأمير المتغلب مقرونا إلى اسم الخليفة.

والحاصل أن الخلافة انتقلت منذ أواخر القرن الثالث من دور الحكم، إلى طور أصبحت فيه محكومة، كانت لها القوة، فأصبحت لا حول لها ولا قوة. وكثر في هذا القرن خروج الروم إلى بلاد الإسلام، فغدوا يبلغون آمد ونصيبين وأنطاكية وحلب،

---

(١) السلوك للمقريزي.

(٢) تجارب الأمم لابن مسكويه.

(٣) معلمة الإسلام: «المقتدر».

وكان العباسيون في القرن الذي قبله يفتحون من بلادهم أنقرة وعمورية وهرقلية، وكأن بعض خلفائهم شعروا في هذه الحقبة بأن الخلافة مهددة بالزوال إذا لم يتولها الأطايب من أبناء هذا البيت، فخلع المعتمد ابنه جعفر المفوض من ولاية العهد وجعل المعتضد ابن أخيه ولي العهد من بعده، وهذا عمل مجيد يغبط عليه فاعله مهما كانت الدواعي إليه، فالمعتضد ثبت قواعد الخلافة العباسية بعقله وكفايته، وكان «المعتمد مستضعفا»،[١]

وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع، كان هو وأخوه الموفق كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه كلمة الأمر والنهي وقود العساكر، ومحاربة الأعداء، ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء والأمراء. وفي أيام المعتمد قطع ابن طولون المتولي على مصر خطبة الموفق، وأسقط اسمه من الطراز، فأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر، وقيل: إن ابن طولون ادعى الخلافة لنفسه بمصر وبايعته الجند والموالي وسائر الناس، على أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه، ويحاربوا من حاربه من الناس جميعا، وقيل: إنه أمر بكتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد فقط.

قلنا: إن المعتضد ثبت أركان الخلافة، وكانت تريد أن تنقض جملة، وهو الذي رد مصر إلى حظيرة الخلافة بعد أن كاد يذهب بها أحمد بن طولون وأولاده، وكتب إلى ابنه خمارويه بولايته عليها هو وولده ثلاثين سنة، وذلك من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال، على أن يحمل في كل عام من المال[٢] مائتي ألف دينار مما مضى، وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل، ولعل ما ساقه أيضًا إلى هذا التسامح بقطعة عظيمة من الملك العباسي، ما تناصرت الأخبار عليه من أن الدولة العبيدية الفاطمية ظهرت أعلامها في المغرب، فأحب أن يضع الطولونيين بينه وبينها، وطلب المعتضد إلى ابن طولون أن يزوجه ابنة ابنه خمارويه، وقال: ما قصدت

---

(١) تاريخ ابن الأثير.

(٢) الولاة والقضاة للكندي.

بهذا الزواج إلا إفقار ابن طولون؛ لأنه يضطر أن يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل، وجرى الأمر - كما قال - فإنها جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام، وكثر هذا الضرب من الزواج السياسي في القرنين التاليين بين أمراء المسلمين، وبما أتاه المعتضد من الأعمال لفظ كيان الدولة صح ما قيل[١] بعض الصحة من أن بني العباس قوم منصورون، تعتل دولتهم مرة وتصح مرارا؛ لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ.

وانحل[٢] في الربع الأول من القرن الخامس أمر الخلافة والسلطنة في بغداد، حتى خرج بعض الجند ونهب شيئا من ثمرة قراح[٣] الخليفة القائم بأمر الله فعظم عليه، واشتد أذى العيارين، واختل الأمن في كل جهة، فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه، وإلى الشهود بترك الشهادة، وإلى الفقهاء بترك الفتوى.

وفي أيام القائم انتهى البساسيري الثائر إلى المستنصر الفاطمي صاحب مصر، فأمده بالأموال حتى أخذ بغداد، وقطع منها دعوة بني العباس وخطب للمستنصر بها نحو سنة والقائم محبوس، ثم قدم طغرلبك السلجوقي، وأعاد القائم إلى الخلافة، وقتل البساسيري.

وفي أيام الراضي زادت وطأة الأتراك على الخلافة، وقال الخليفة يوما: وكأني بالناس يقولون كيف رضي هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركي (بجكم) حتى يتحكم في المال وينفرد بالتدبير، ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد مثلي، وأدخلني فيه قوم بغير شهوتي، ويجلسون في اليوم مرات، ويقصدونني ليلا، فسلمت إلى ساجية وحجرية يتسحبون علي ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه، وأن يكون له بيت مال، وكنت أتوقى الدماء في ترك الحبل عليهم إلى أن كفاني الله أمرهم. ثم دبر الأمر ابن رائق فدبره أشد تسحبا في باب المال منهم، وانفرد بشربه ولهوه، قال: ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية بل على أسبابي، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه.

(٢) تاريخ ابن الأثير.

(٣) القراح بالفتح: المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر، والجمع أقرحة.

ينفذ ولا يستعمل، إلى أن قال: فرضيت ضرورة به، وكان أوفق لي وأحب إلي ممن قبله، وكان الأجود أن يكون الأمر كله لي، كما كان لمن مضى قبلي، ولكن لم يجر القضاء بهذا لي. ا.هـ.

وهذا كلام الرجل الضعيف النفس والعزيمة والسياسة، وفي أيامه (٣٢٦هـ) جاء كُتّاب الروم من رومانس وقسطنطين من عظماء ملوك الروم يطلبون الصلح، قالوا فيه: لما بلغنا ما رزقته - أيها الأخ الشريف - من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء حمدنا الله، ثم طلبوا الهدنة والفداء.[١]

وفي سنة ٣٣٢ه خرج عسكر الروس إلى أذربيجان وقصدوا بردعة وملكوها، وفي أيام الراضي وثب في كل قطر من الأقطار قائم أو أمير تغلب على إقليمه، وانطلق في أحكامه يفعل ما يشاء، كأنه المالك الحقيقي للقطر أو الأقطار التي أصبح له السلطان الأعظم عليها، والخطبة لبني العباس ما عدا الغرب وإفريقية والأندلس، وفارس في يد علي بن بويه، والري وأصفهان في يد أخيه الحسن بن بويه، والموصل وديار بكر وديار ربيعة في أيدي بين حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طغج، ثم في أيدي الفاطميين، وخراسان والبلاد الشرقية في يد بني سامان.

وكان من العادة في أيام تراجع الخلافة واستيلاء المتغلبين على بعض أقطارها أن يكتفي بعض الخلفاء بلعن من خالف عليهم، يأمرون بلعنه على المنابر حتى يكل اللاعنون ويملوا، والخارج يقوى ويستعلي، وربما قابلهم هو بالمثل، فيكون اللعن شفاء لصدر المقهور، وتقاصر اسم[٢] الخلافة في هذه الأزمان، وقنع الخلفاء من خلافتهم بالدعاء على المنابر، وضرب اسمهم على الدنانير والدراهم، فكان المتقي والمستكفي والمطيع[٣] كالمولّى عليهم لا أمر ينفذ لهم، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه.

(٢) صبح الأعشى للقلقشندي.

(٣) التنبيه والإشراف للمسعودي.

أكثرها المتغلبون واستظهروا بكثرة الرجال والأموال، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم.

وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين، قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة، وازداد في أيام المطيع أمر الخلافة إدبارًا، حتى لم يبق له من الأمر شيء قل أو جل، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه إياه معز الدولة بن بويه مما يقوم ببعض حاجته.

بعث بختيار (٣٦١هـ) على مطالبة المطيع بما يوهمه[١] أنه يحتاج إلى إحراجه في طريق الغزو، فأجابه المطيع: إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي، وإلي تدبير الأموال والرجال، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر عن كفايتي، وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف، فما يلزمني غزو ولا حج، ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه، وإنما لكم مني هذا الاسم الذي يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت من هذا المقدار أيضًا، وتركتكم والأمر كله.

وكانت هذه الطبقة من الخلفاء منحطة لا تصلح للخلافة ولا لشيء غيرها من مهام الملك. قال ابن بهلول: كنا إذا كلمنا المستكفي وجدنا كلامه كلام العيارين، وكان الغالب على دولته امرأة يقال لها علم الشريازية، وكانت قهرمانة داره، وهي التي سعت في خلافته عند «توزون» حتى تمت، فعوتب على إطلاق يدها وتحكمها في الدولة، فقال: خفضوا عليكم، فإنما وجدتها في الشدة ووجدتكم في الرخاء، وهذه الدنيا التي بيدي هي التي سعت لي فيها حتى حصلت، أفأبخل عليها ببعضها؟

ولم يغنِ[٢] عن المقتدر ما بذل من المال للجند لما شغبوا حتى ضربوه بالسيف، وذلك بسبب جرأة الأعداء وطمعهم فيما لم تكن أنفسهم تحدثهم به من الغلبة على الحضرة، وانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة وتفاقم.

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه.

(٢) يقول الشعراني: إن الأمين بن الرشيد قُتل صبرًا وقطعوا رأسه، ومات المتوكل مقتولا، وقتلوا المستعين بالله وقطعوا رأسه بعد أن خلعوه وحبسوه، وقتلوا المعتز بالله في الحمام غطسوه في الماء الحميم حتى مات بعد أن ضربوه على رأسه ووجهه بالدبابيس وأوقفوه في الشمس أياما، وقتلوا

قال الطبري:[١] وحار الناس في أمر دولة المقتدر وطول أيامها على وهي أصلها وضعف ابتنائها، ولم ير الناس ولم يسمعوا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته، وكان جيد العقل صحيح الرأي، ولكنه كان مؤثرا للشهوات، قال التنوخي:[٢]

ولقد سمعت أبا الحسن علي بن عيسى الوزير، يقول: وقد جرى ذكر المقتدر بحضرته في خلوة: ما هو إلا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصح ذهنه، فأخاطب منه رجلًا ما خاطبت أفضل منه، ولا أبصر بالرأي، وأعرف بالأمور، وأسد في التدبير، ولو قلت: إنه إذا ترك النبيذ هذه المدة يكون في أصالة الرأي، وصحة العقل، كالمعتضد والمأمون، ومن أشبههما من الخلفاء، ما حسبت أن أقع بعيدا، وما يفسده غير متابعة الشرب ولا يخبله سواها.»

وفي أيام القادر[٣] عاد إلى الدولة العباسية وقارها، ونما رونقها وأخذت أمورها في القوة، وكان من أفضل خلفائهم، قال ابن الأثير: إن خلافته إحدى وأربعون سنة، وقد جدد ناموس الخلافة، ومن قبل كان طمع فيها الديلم والترك، وأطاعه الناس أحسن إطاعة؛ لأنه كان على صفات حسنة من الخير، وراح المقتدي وجاء المستظهر، ثم المسترشد وهو المتمم للثلاثين من خلفاء بني العباس، والمسترشد والراشد أخوان، كما

=

المهتدي؛ لأنه منع حاشيته من المظالم، وقتلوا ابن المعتز بعد أن حبسوه أياما وخنقوه وقاسى من الأهوال ما لا يعبر عنه، وقتلوا المقتدر بالله بمواطأة وزيره فضربوه على رأسه بسيف، وشالوا رأسه على رمح وسلبوا ما عليه من الثياب، وقتلوا القاهر بالله فكحلوا عينيه بمرود من نار، فلم يزل كذلك إلى أن مات، وسملوا عيني المتقي بالله وأحلوه الحبس فلم يزل كذلك إلى أن مات في الحبس بعد أربع وعشرين سنة، وهجموا على الخليفة المستكفي بالله وهو على سريره فجروه على الأرض برجله، ثم سملوا عينيه حتى مات، فعل ذلك به الديلم، وقتلوا الخليفة المسترشد بالله دخل عليه سبعة عشر رجلًا من الباطنية فضربوه بالسكاكين حتى مزقوا جسده وقطعوا أنفه وأذنيه ثم أحرقوه، وقتلوا الراشد بالله بعد أن عاقبوه في الحبس إلى أن مات وولده، وقتلوا المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد بموالسة وزيره، ووضعوه وولده في تليس وصاروا يرفسونهما إلى أن ماتا. ا.هـ.

(١) تاريخ الطبري.

(٢) نشوار المحاضرة للتنوخي.

(٣) الفخري لابن الطقطقي.

كان السفاح والمنصور أخوين، والهادي والرشيد أخوين، والواثق والمتوكل أخوين، أما الثلاثة الأخوة الأمين والمأمون والمعتصم إخوة أولاد الرشيد، والمكتفي والمقتدي والقاهر إخوة أولاد المعتضد، والراضي والمتقي والمطيع إخوة أولاد المقتدر.

ويقول أرباب السير: إن المكتفي (٥٥٠هـ) كان حسن السيرة وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه، وإنّ حرمته كانت وافرة، بخلاف الخلفاء قبله.[١] وأظهر الظاهر (٦٢٣هـ) من العدل والإحسان ما أحيا به سنة العمرين.[٢]

ومع هؤلاء النابهين من الخلفاء أصبحت الخلافة العباسية أوائل القرن السابع شبحا من الأشباح، وكان الضعف سرى إليها منذ انتقل الملك والدولة في آخر[٣] أيام المتقي وأول أيام المستكفي إلى بني بويه الديلم، ولما عزل المستكفي وبويع للمطيع ودخل معز الدولة إلى بغداد خلقت ديباجة الخلافة، وكادوا يبايعون للعلويين.

قال المقريزي: فلم يبق في يد بني العباس من الخلافة إلا اسمها فقط من غير تصرف في ملك، بحيث صار الخليفة منهم في مدة الدولة البويهية، ثم في الدولة السلجوقية إنما هو كأنه رئيس الإسلام، لا أنه ملك ولا حاكم، تحكم فيه الديلم، ثم السلجوقية كتحكم المالك في مملوكه، وما زالوا تحت الحكم منذ سنة ٣٣٤هـ إلى أن قتلوا عن آخرهم، وسبي حريمهم، وهدمت قصورهم، وهلكت رعاياهم على يد هولاكو، وكانوا هم السبب في ذلك.

قال: والعوامل في انقضاء الدولة العباسية التي دامت نيفا على خمسمائة وعشرين سنة أنها صارت إليهم بعد ما ضعف أمر الدين وتخلخلت أركانه، وتداول الناس أمر الأمة بالغلبة، فأخذ حينئذ بنو العباس بأيدي العجم أهل خراسان، ونالوها بالقوة، ومناهضة الدول، ومساورة الملوك، حتى أزالوا بعجم خراسان دولة بني أمية، وتناولوا

---

(١) دول الإسلام للذهبي.

(٢) تاريخ ابن الأثير.

(٣) التنازع والتخاصم للمقريزي.

العز كيف كان، فما وصل أمر الأمة إلى أهل العدالة والطهارة، ولا وليهم ذوو الزهادة والعبادة، ولا ساسهم أهل الورع والأمانة، بل استحالت الخلافة كسروية وقيصيرة. ا.هـ.

وقال أيضًا في دولة[1] بني العباس: إن فيها افترقت كلمة الإسلام، وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك فيه، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصارت لهم دول عظيمة جدا، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم، يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر.

ولقد تجلى التفريط والإفراط في العهد العباسي الأخير والأوسط، وما كانت تأثيرات النكبات ظاهرة كل الظهور، لمكان القوة في جسم الأمة، وكان كلما ضعف سلطان الخلافة ضعفت الأمة على نسبتها، وربما كان من العوامل في ضعف سلطان العباسيين اتساع رقعة مملكتهم وترامي أطرافها، فصعب معه القضاء على دعوة كل من ينزع في القاصية إلى الاستقلال بجيشهم من الخراسانيين، ثم من غيرهم من العناصر غير العربية؛ ولأن من الخلفاء من ربما أعطوا الألوف لمن يجب ولمن لا يجب، وضنوا باملئات على الجند والقواد، ومنهم من شُغل بشهواته ورفاهيته، وبلغ في ذلك مبلغًا عظيمًا، وخرجوا جملة عن هدي الراشدين، وخالفوا سيرة أعاظم الأمويين والعباسيين، وراحوا يتمتعون بالفتوح التي تمت لبني أمية في الخافقين، ووضع هؤلاء أساسها، فما بنى أخلافهم كما بنوا، واحتفظوا بهذا التراث العظيم الاحتفاظ الواجب، ولئن نقموا من الأمويين تغاليهم في رد الطالبيين وآل العباس عن الأمر، فما كان العباسيون أرفق بالطالبيين والأمويين والخوارج وكل من نازعهم السلطة يوم كان الأمر أمرهم.

ولما كثر الأعاجم في دولتهم، وهجم عليهم الروح الفارسي من كل جانب، وأضعفوا بأيديهم عصبيتهم العربية، وجعلوا من الفرس والترك عصبية محدثة لهم، صار اسم العرب في أكثر أيام هذه الدولة كأنه تاريخ أمة بائدة، يُقرأ للتسلية والاطلاع، لا للقدوة والاتباع، ولو لم تكن العربية لسان الدولة لما قال القائل في وصف الدولة العباسية، إلا أنها دولة الفرس دخلها تعديل بالإسلام.

---

(١) السلوك للمقريزي.

على أن الدولة يتعذر عليها أن تسري على غير هذه الطريق ما دام الجيش - وهو أول عامل في قيام الدولة - من الأعاجم، وما دام سلطان الدولة يمتد على مملكة تسعة أعشارها من غير العرب.

ولولا أن نبغ في صدر هذه الدولة بضعة خلفاء عظماء، كالمنصور والرشيد والمأمون من بين سبعة وثلاثين خليفة، لصح أن يقال: إن الدولة العباسية الفارسية كانت دون الدولة الأموية العربية بمراحل، وأي ضعف أعظم من أن يُقتل الخليفة بأيدي المتغلبين، أو يبقى آلة في أيديهم وهو ساكت لا يتحرك، راض بما قسم له من حظ، خصوصا لما انتقل الملك إلى آل بويه،[1] وأصبح ما كان بقي في أيدي العباسيين أمرًا دينيًا اعتقاديًا لا ملكًا دنياويًا، فكان القائم بالدولة منذ فجر القرن الرابع إنما هو رئيس الإسلام لا ملك يستجمع صفات الملك والخلافة.

وإذا دون المؤرخون شيئًا من أخبار القوة فهو صادر عن ملوك الطوائف الذين اتخذوا شعار العباسيين اسما، وعملوا تحته كالبويهين والسلجوقيين والسامانيين والغزنويين والطولونيين والإخشيديين والحمدانيين والأغالبة، وهذا مما لم يعهد مثله في دولة بني أمية في دمشق وقرطبة، هؤلاء كان فيهم شمم العرب وعز الملك والسلطان، والتشبع بروح الدين، وكان لخلفائهم صبغة خاصة يهتمون بملكهم قبل كل شيء.

أفسد العباسيون دمهم العربي بما أدخلوه عليه من الدم الغريب، وأفسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم في عنصرهم، والاستنامة إلى غيره لقيام دولتهم، فغدا الدخيل بعد حين أصيلا، وسقطت الأصول وقامت بدلها الفروع، وآض المصطنع سيدًا مسودًا، ورجع العظيم يتعثر في أذيال الذل، أصبح العباسيون إلا قليلًا خلاسيين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم، وتركتهم الشعوب للتبرك بهم لشرفهم، ولا تزيد مكانتهم عن بعض السلاطين الذين انتزعوا أقطارًا من الأرض العباسية وحكموها بالجبرية حكمًا دينيًا ومدنيًا.

---

(١) الآثار الباقية للبيروني.

ومن أهم العوامل في ضعف بني العباس عدم العناية بتربية أولياء العهد تربية حرة عملية، وكان من عادة أكثر الخلفاء أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم، وبذلك جرت سنتهم إلى آخر أيام المستنصر، فلما ولي المستعصم آخر خلفائهم ببغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم، وبحبس أولاد الخلفاء ضعفت ملكاتهم، وربما انصرف أكثرهم في دور احتباسهم إلى اللهو والشهوات، فإذا جاءوا يتربعون في دست الخلافة عجزوا عن سياستها؛ لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم، ولقد كان الرسم في عهد الخلفاء الأول من آل العباس أن يراقب الوالد ابنه والابن أباه والأخ أخاه على طريقة مكتومة عن الأنظار، وتوسد إلى أبناء الخلفاء وإخوتهم قيادة الجيوش وإدارة الولايات يشتركون في السلطان، وتؤخذ آراؤهم في النوازل، ويدخلون في مجالس المشورة، فيكون لهم بذلك شيء من الوقوف يدركون به أنهم شركاء في الملك، وعليهم أن يستعدوا لتولي زمامه.

وبحجب أبناء الخلفاء في عصر الانحطاط أمسى بعضهم كالمغفلين لعدم اختلاطهم بأحد، يدرسون سياسة الملك في الكتب، وربما لا يرخص لهم أن ينظروا في كل الكتب، ويهيئهم المؤدبون تهيئة نظرية، ولا يعلمون شيئًا كثيرًا يصح أن يكون مادة لحياتهم وحياة الخلافة، إذا أتت نوبتهم لتولي هذا المنصب الجليل.

ثم قد يترفع الخليفة عن المجتمعحتى يجهل حقيقة أحوال الناس، وما يدور في بلاده من المسائل المهمة، اللهم إلا ما يكتب به إليه أصحاب الأخبار، وعد من مزايا الظاهر (٦٢٢هـ)، ولم يلِ الخلافة العباسية أتقى منه بعد عمر بن عبد العزيز الأموي، أنه ظهر للناس وكان الخلفاء قبله لا يظهرون إلا نادرًا،[1] ولم ينظر في الرقاع التي تكتب إلى الخليفة في العادة في موضوع أخبار الناس، إلا أن أيامه لم تطل، ولم يدم الملك العباسي بعده كثيرا.

وأهم مسألة في انهيار بنيان الدولة هذا الجيش الغريب، فقد كان الجيش لأول أمره من أبناء خراسان، واشترى المنصور المماليك واستخدمهم وتابعه من خلفوه، وما جاء

(١) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعي.

المعتصم حتى وضع من العرب[١] وأخرجهم من الديوان، وأسقط أسماءهم، ومنعهم العطاء من العاصمة والولايات، وأصبح جند[٢] الخلافة على عهده خمسة أقسام: الخراساني والتركي والمولي والعربي والبنوي،[٣] وهذه الجيوش التي سلبت قرار الحضرة - أي العاصمة - كانت تثور في أيام العظماء من ملوكهم وتتطلب عطاء السنة والسنتين، ولها هيجة كلما راح خليفة وجاء خليفة، إذا لم يكن المال مهيئا لإرضائهم ولوا وجوههم عنه، ويا ويل من يولي الجيش عنه وجهه.

ولقد أنكر الجند[٤] والقواد على المقتدر استيلاء النساء والخدم على الأمور، وكثرة ما أخذوا من الأموال والضياع، فقتلوه فانخرقت الهيبة، وضعف أمر الخلافة منذ ذلك العهد، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة. يقول حمزة الأصفهاني:[٥] إن الملك تنقل من بني العباس في ثمانية عشر نفرا، والمقتدر ثامن عشرهم وكان في مدة مائة وسبع وسبعين سنة على جملة من الاستقامة؛ إذ كانت العوارض التي تعرض في سلطانهم قصرية المدة سريعة الزوال، فانساق ملكهم على هذا المنهاج إلى أن مضى من ملك المقتدر ثلاث عشرة سنة إلا أياما، وذلك في آخر سنة ثمان وثلاثمائة، فعندها بدأت الأحداث والفتن في دار ملكهم، فأزالت عن الجند والرعية هيبتهم، وأخلت من الأموال خزائنهم.

وإذا استثنينا عهد المعتضد لم نشاهد بعد المأمون من كان ذا عبقرية في إدارة الملك، وقد لا ينتظم الأمر حتى بوجود الوزراء المحنكين؛ لأن للرئيس تأثيره ما دام مرجع الأعمال إلى الخليفة، فإن كان هذا على اتزان تخفى العيوب في الجملة، في هذه السلطنة الاستبدادية الطويلة العريضة، وإلا فالملك في تزلزل، وهناك خليفة يدبره أخوه، وآخر تدبره أمه وقهرمانتها وقهرمانته، وغيره يدبره وزيره، وفي كثير منهم كانت سلطة

---

(١) خطط المقريزي.

(٢) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ.

(٣) الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن، والنسبة إليهم أبناوي وبنوي.

(٤) صلة تاريخ الطبري لعريب.

(٥) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني.

النساء بادية في الخلافة، وقل خليفة كالمأمون والمعتضد من يصدر عن رأي نضيج، ويعنى بملكه كما يعنى بنفسه.

يقول صاحب النشوار:[١] «كان أول ما انحل من نظام سياسة الملك أيام بين العباس القضاء، فإن ابن الفرات وضع منه وأدخل فيه قوما بالزمانات،[٢] لا علم لها ولا أبوة، فما مضت إلا سنوات حتى ابتدأت الوزارة تتضع، ويتقلدها كل من ليس لها بأهل، حتى بلغت في سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة إلى أن تقلد وزارة المتقي ابن العباس الأصفهاني الكاتب، وكان غاية في سقوط المروءة والرقاعة. وتلا سقوط الوزارة اتضاع الخلافة وبلغ صيورها إلى ما نشاهد، فانحلت دولة بني العباس بانحلال القضاء. ا.هـ.»

ولما ولّى معز الدولة بن بويه القاضي عبد الله بن أبي الشوارب (سنة ٣٥٠هـ) قضاء القضاء، شرط على نفسه أن يحمل في السنة إلى خزانة ابن بويه مائتي ألف دينار، فتألم المطيع لله وامتنع من تقليده. وبلغ من سقوط منصب الوزارة أن بعضهم كان يستعمل ضروب الرشى ويرتكب كل صغار ليصل إليها، ومنهم من أنفق في هذه السبيل فقط خمسمائة ألف دينار، ومنهم من رشا المنجمين حتى يشيعوا أخبارًا يجعلها سلما إلى أغراضه.

ما انقضت الدولة العباسية[٣] حتى كانت مصر والشام في أيدي المماليك، واليمن بأيدي الزيدية والدولة الرسولية، والحجاز لبني حسن، ومراكش لبني مرين، وإفريقية للحفصيين، والأندلس لبني الأحمر وملكهم غربا من جزائر بني مزغنان - الجزائر اليوم - إلى عقبة برقة، والتكرور لرجل ينتسب إلى عمر بن الخطاب، وصاحب البرنو وصاحب الكانم من بيت قديم في الإسلام، وماردين لبني أرتق، وحصن كيفا بيد رجل من بقايا الأيوبيين، وصاحب أرزن من ملوك آل سلجوق، وصاحب بدليس شرف الدين، وهراة غياث الدين، والأكراد يتأمر عليهم صاحب جوملرك وصاحب عقرشوش،

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخي.

(٢) الضمانات.

(٣) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعي.

وأمراء الترك في بلاد الروم أو بلاد الدروب؛ أي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني، ومملكة إيران بأيدي بيت هولاكو ويدخل فيها الهياطلة وهي بلاد مازندران، وما يليها إلى آخر كيلان، وتوران مملكة الخاقانية بيد أفراسياب ملك الترك، وبقية ديار بكر بيد إبراهيم شاه، ومملكة أذربيجان بيد سليمان شاه من أولاد جوبان، وخراسان بيد الخاقان طغتمر. ومملكة توران منقسمة ثلاثة أقسام، منها سلطانان مسلمان وأكبر الثلاثة القان الكبير هو صاحب الصين والخطا، وقد دان دين الإسلام، والملكان الآخران صاحب السراي[1] وخوارزم والقرم ودست القبجاق، والثاني صاحب غزنة وبخارى وسمرقند وعامة ما وراء النهر، وهناك أمراء البادية من العرب وهم بديار مصر وبرقة واليمن والحجاز والشام والعراق والبحرين.

علل بعض مؤرخي الإفرنج لسقوط المملكة العباسية بأن الثورة التي عجلت بسقوط الأمويين وأدالت منهم للعباسية، كانت عمل حزب ديني ثار علنًا ودعا سرًا مدة قرن كامل، وكانت أيضًا حركة قومية، ومقاومة من الشرق، وأثرا من آثار نقمة الفرس على الفتح العربي، وأن بعض عظماء ملوكهم كالسفاح والمنصور والمهدي والرشيد والمأمون والمعتصم أسرع الانحطاط إلى العباسيين، وتقسم البلاد ملوك وأمراء، وتعاقبت عليها دول حربية أو وطينة استأثروا بجزء من المملكة وراحوا بها يؤسسون ملكا ويقيمون حكومات، وأن الوحدة السياسية فقدت في المملكة العربية عقب انحلال دولة بني أمية في دمشق.

قال: وبينا كان يظهر في الفاطميين والأمويين في الأندلس زعماء وفاتحون، لم يكن يظهر في العباسيين الكسالى غير أناس أمسوا ألعوبة في أيدي مستخدميهم من الجنود ورجال البلاط، ومع ذلك عاشت دولتهم بعد تينك الدولتين. قال: إن العصر الذهبي لخلافة بغداد كان في أواخر القرن الثامن ومبدأ القرن التاسع، ثبتت قواعد تلك المملكة في الشرق، وقمعت الثورات التي قام بها أبناء علي، وسكنت نغمة الخزر في تخوم إرمينية والروم في آسيا الصغرى، ومنهم من كبح جماحه ومنهم من رُد على أعقابه.

---

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو.

وعقد العباسيون مع الإمبراطورة إيرين، ثم مع خليفتها نقفور الأول معاهدات حملت في مطاويها ذلا للإمبراطورية. وكانت بلاد الخلافة عبارة عن ثماني وعشرين ولاية تمتد من نهر الأندوس إلى الأطلنطي، ومن جبال القوقاز إلى الصحراء، أما أقصى حدود المملكة من الغرب - أي إسبانيا والمغرب - فقد نزعت طاعة الخلافة العباسية عنها، وظلت سائر البلاد مجموعة الشمل متماسكة الأجزاء، وكانت عوامل الاضمحلال واحدة في الخلافات الثلاث (العباسية والفاطمية والأموية الأندلسية)؛ ذلك لأن السلطات كلها كانت مجموعة في أيد الخليفة، ولكي يقوم بعمله يجب أن يكون عظيما في ذاته، أو يحسن اختيار وزراء عارفين يحسنون خدمته ولا يتسلطون عليه، وقد أثبت الخلفاء الأولون من العباسيين ومؤسسوا الدولة الفاطمية، وكثير من الأمويين في الأندلس، ومنهم عبد الرحمن الثالث أنهم من الطراز الأول من الرجال، بيد أن عيش القصور والحرم، على ما كان عليه في قرطبة والقاهرة وبغداد، لا ينشأ منه غير فساد الذرية مهما كان من قوتها؛ ولذلك لم تلبث هذه الممالك أن تولاها أمراء جهلاء ليسوا على شيء من النبوغ ولا الأخلاق، وعلى قدر الملك يكون قدر الحكومة، والاستقرار يكون عادة في الممالك المطلقة، ولئن أصبحت الوراثة في تولي الملك عادة متبعة، فما عين القانون لانتقال الملك بالإرث خطة مقررة، وحاول بعض أرباب المدارك من رجال الأمر أن يصلحوا هذا الخلل فما وفقوا.

كان العباسيون ينصبون ولي العهد مقدما، وهو يقسم الأيمان كما يقسم الملك المتولي، وفي الأندلس عمد الحكم الثاني إلى عظماء المملكة ودعاهم إلى التوقيع على ما يشبه البراءة؛ لتقليد ابنه الخلافة وأرسلت نسخة منها إلى الولايات، وكان الأعيان وأرباب الطبقات الدنيا يوقعون عليها، ولم تنجع كلتا الطريقتين.

وفي بغداد لم يهدأ بال المنصور إلا بخلع ابن عمه عيسى من ولاية العهد لنصب ابنه مكانه، وفي قرطبة لم يكد الحكم الثاني يلقى حتفه حتى دبرت في القصر مكيدة، جعل بها بدل هشام أموي آخر اسمه المغيرة، إلا أن الوزير المصحفي وابن أبي عامر تقدما بقتل هذا الدعي، ومن حظ هشام أن أطماع هذين الرجلين وقفت عند حد إعادة الحق إلى صاحبه. وعلى هذا رأينا نظام ولاية العهد عرضة للأخطار، وكانت شهوة كل

من كانوا على صلة بالعرش، أن يتولوا الأمر إذا كانوا من الأمراء، وأن ينصبوا الملك الذي يختارونه، إذا كانوا من الوزراء أو من رجال الدولة وقواد الجيش، وهناك الدسائس والأحزاب والمنافسات والفتن، والسلطة العليا تضعف إذا كانت مختلة باضطرابات دائمة، والدولة أبدًا قلقة بأطماع الوزراء، ومكايد الموالي والعبيد ونفوذ الأمراء.

إن سادة العرب بفتحهم الشرق والغرب، لم يتخلوا عن طبيعتهم الجامحة التي تقضي على النظام، وكان من غرائزهم المتأصلة في جوانحهم ألا ترضى بإقامة حكومة منظمة، وكان من القوة للخلفاء أن يختاروا عمالهم وجندهم من فريق آخر، يؤثرون الاعتصام بالعرب أو الركون إلى غيرهم، أي من العناصر الوطنية من فرس وبربر وقبط وإسبان، وما خلت هذه السياسة من أخطار، وما عرف مدى ضرر هذه الرعاية للغريب؛ ذلك لأنها كانت مدعاة لتيقظ الفكرة الوطنية في البلاد المغلوبة على أمرها، ومن شأن القوميين أن يعادوا وحدة المملكة، بل هم لا يرون قيامها بحال.

يدين العباسيون في الشرق بخلافتهم للنقمة الفارسية، وهم أنفسهم أدنى إلى أن يكونوا فرسًا منهم إلى أن يكونوا عربًا، ومتى ضعفت الخلافة وثار القواد في أصقاع الولايات، وجعل رؤساء العصابات ملوكا، يقوم هؤلاء الغاصبون ويهيجون النعرة القومية، ويوهمون الناس أنهم على حق بما يمتون إليه من أصولهم القديمة، وبحرصهم على إعادة ذكرى ما كان لهم من ذلك قبل الإسلام، فقد ادعى السامانيون، وهم من عنصر تتري، أنهم من نسل الملك بهرام بن جوبين الفارسي، وزعم البويهيون من الديلم أنهم من نسل الساسانيين ملوك فارس، وهكذا الحال في إفريقية وفيها أنشأ الفاطميون مملكتهم بأيدي البربر، كما أنشئت خلافة بغداد بأيدي الفرس.

كان الأمويون في الأندلس عرضة للانحلال منذ القرن العاشر؛ لأنهم كانوا على خطر من الممالك النصرانية من الشمال، وانتقاض رعاياهم من الإسبان المهتدين أو النصارى، لولا أن حال دون ذلك نبوغ عبد الرحمن الثالث. ولما لم يستطع الخلفاء أن يعتمدوا على مواطنيهم من العرب، أو على رعاياهم من أهل البلاد، حاولوا أن يقيموا سلطانهم بعناصر أخرى، فأنشأوا لهم جندًا مهمًا يتفانى في خدمتهم، فوقع اعتمادهم

على جند غريب وسلموا حامياتهم للعبيد وللمماليك، فكان للعباسيين حامية تركية، وللفاطميين حامية من البربر والزنوج والأتراك، واتخذ الأمويون في الأندلس الصقالبة والبربر والقشتاليين، فغلط الخلفاء في تقديرهم هذا؛ لأن أدوات الحكم خرجت عنهم أو انقلبت عليهم، وعملت المكايد في هؤلاء الصعاليك، وتقرب منهم أرباب الأحزاب، وعصفت فيهم الأطماع، وعبثت بهم الأهواء، فما لبثوا أن دخلوا في العراك ينصبون الخلفاء ويخفضونهم، ويعسفونهم ويذلونهم، ويوقعون بهم ويقتلونهم، إن مصير خلافة الأمويين في قرطبة مصريها في العباسيين والفاطميين، انحلت بالفوضى العسكرية. ا.هـ.

وقال لبون: إن أول ما نشأ من فساد الأسلوب السياسي عند العرب تمزيق مملكتهم، فقد كان الخلفاء يينبون عنهم نوابا في الولايات يجمعون مثلهم بين السلطة الحربية والدينية والمدنية، فلا يعتمون أن يحاولوا حكم البلد لحسابهم الخاص، ولما كان من المتعذر كبح جماحهم، أصبح من الميسور عليهم أن يملكوا البلاد، وكان من نجاح بعض دبوا لإدارتها، داع إلى حمل غيرهم على احتذاء مثالهم، الحكام في التغلب على الولاية التي انت وبلغت الحال أن أصبحت الولايات القاصية في المملكة ممالك مستقلة، ونتجت من هذا التمزيق نتائج مضرة ونافعة، والضرر في كون التقسيم يضعف السلطة العسكرية في العرب، والنفع في كون هذه التجزئة تسهل ارتقاء المدنية، وما كان لمصر ولا لإسبانيا أن تبلغا هذه الدرجة من النجاح الذي كتب لهما لو لم تنفصلا عن الحضرة. ا.هـ.

وفي الحق إن الأندلس ومصر ما كان يتم فيهما ما تم من الحضارة لو ظلتا مقطورتين مع الدولة العباسية إلى آخر أيامها، وكيف تبقيان لها والعباسيون بعد القرن الثالث عجزوا عن إدارة العراق دع القاصية، وقد كانت الأندلس حتى في العهد الأموي الأول ميدانًا للفوضى لبعدها عن مقر الخلافة، وكانت مصر في هذا المعنى أحسن حالا لقربها من دار الملك في الجملة، فمن سعادة الأندلس أن عاد أبناء الأمويين فحكموها، ومن سعادة مصر أن تولاها ابن طولون عن العباسيين فاستقل بها، ومن سعادة تونس أن تولاها الأغالبة زمنًا، وكان هذا البعد الباعد بين هذه الممالك الثلاث وبين دار الخلافة العباسية من العوامل الكبيرة في استقلالها.

ويرى لبون أيضًا أن من جملة العوامل في انحطاط دولة العرب اختلاف العناصر الخاضعة لهم، وقد ظهر تأثير هذا العامل الأخير من طريقتين مختلفتين كلاهما ضار، ونشأ من اختلاط عناصر مختلفة تمازج، ثم تنافس بين شعوب متباينة كل التباين، وكان من جهة أخرى اختلاط كثير في الدم لم يلبث أن كان منه تغير دم الفاتحين، ولطالما كان هذا التمازج بين شعوب مختلفة في مملكة واحدة من عوامل الانحلال الفعالة، ويعلمنا التاريخ أن من المتعذر استبقاء عناصر مختلفة في يد واحدة إلا إذا روعي في ذلك شرطان أساسيان، أحدهما أن تكون سلطة الفاتح قوية إلى الغاية بحيث يوقن كل إنسان أن كل مقاومة باطلة، والثاني ألا يختلط الغالب بالمغلوب ولا يفنى فيه، وهذا الشرط الثاني لم يحققه العرب بتاتا وكذلك كان شأن الرومان ... ومن المتعذر حياة شعوب منوعة الأصول بقانون واحد، إذا تباينوا في المصالح والأجناس، وقد لا يتأتى إسلاس قيادهم إلا بضغط شديد، وما قامت العرب بمثل هذا الضغط مع شتى العناصر التي خضعت لهم؛ لأن الشعوب المغلوبة قبلت الدين والأوضاع التي حملها العرب على غاية من السهولة.

وهكذا كان قانون القرآن، وما أراد الفاتحون أن يناقضوه، فألف الغالبون والمغلوبون لأول الأمر شعبًا وأحدًا، كانت معتقداته وعواطفه ومصالحه مشتركة، وما دام سلطان العرب من القوة بحيث يحترم في كل مكان، كان الاتفاق تامًا في جميع أجزاء الدولة، ولئن سكنت المنافسات بين هذه الشعوب المختلفة فما خمدت كل الخمود، وبدت تظهر عادات الاختلاف المتأصلة في العرب، وعادت فكرة الأحزاب في جميع البلاد الإسلامية فأخذت تتناحر وتتقاتل.

وقال أيضًا: قد ينبعث النجاح من الأخلاق والذكاء في زمن، ويكونان أداة للإخفاق في زمن آخر، عرفنا كيف كان ميل العرب للحرب والشقاق بادئ بدء، وكيف كان هذا الخلق من دواعي ارتقائهم في عصر فتوحهم، وقد أصبح مضرًا لهم لما تم الفتح، ولم يبق أمامهم عدو يكتسحونه. وعاد فتجلى طول اعتيادهم الانقسام، وكان منه تمزيق ملكهم وانتهى بسقوطه. أضاعوا باختلافاتهم الداخلية إسبانيا وصقلية، وكان من تنافسهم الدائم أن قوي النصارى على طردهم، وقد يكون من أوضاعهم السياسية

الاجتماعية عوامل في نجاحهم السريع، ودوافع إلى انحطاطهم المريع، وما استطاع العرب أن يفتحوا العالم إلا يوم خضعوا لقانون مقرر ثقفوه من الدين الجديد الذي جاءهم به محمد.

قال: وعرف المسلمون في عصور الخلفاء الزاهرة في بغداد وقرطبة أن يوفقوا بين الشريعة وحاجة الشعوب التي دانت بها، وصعب إدخال تعديل في الأوضاع السياسية في الإسلام، ومن أحكامه أن يكون على رأس المملكة ملك يجمع في يديه جميع السلطات العسكرية والدينية والمدنية، وبهذا فقط تيسر قيام دولة عظمى، وربما كان من هذه الأوضاع عامل من عوامل خراب المملكة، فقد تكون الدول الملكية الكبرى التي تجمع عامة السلطات في يد واحدة من التماسك بحيث لا تقاوم في فتوحها، وقل أن يكتب لها النجاح إلا إذا كان على رأسها أبدًا رجال ممتازون، فإذا خلت البلاد منهم يتداعى كل شيء فيها. ا.هـ.